

كتاب البيزرة

البيزرة او البزدره علم^(١) أحوال الجوارح من حيث صحتها ومرضها ومعرفة العلامت
الدالة على قوتها في الصيد وضعفها فيه . من قولهم بيزار معرب بازيار اي صاحب الباز
أو من قولهم يزدار معرب بازدار أي ذي الباز بالفارسية . واستعمل العرب البازيار وآثروها
على البياز^(٢) العربية مثل العقار لصاحب القمر والكلاب لصاحب الكلب والفهاد
والفيال والعقاب .

فأصل كلمة البازيار والبيزرة التي اطلقوها على علمه كانوا يقصدون بها أولا
حياة الباز وتربيته والانتفاع به ثم تصرفوا بها واطلقوها على علم حياة الجوارح عامة
وكان لهذا العلم في الدول العربية الأولى شأن عظيم لأن جميع الخلفاء والامراء
والعظماء يصيدون ولا بد للصيد من اتخاذ الأسباب التي توصله الى الصيد وتمكنه من
اصطياد كل ما يريد على ايسر سبيل . وكان لهذه الحرفة شأن كبير في الدولة
العباسية رسموها في الأعطيات والفرائض وكذلك للبيازرة شأن في الدولة الفاطمية
فكان الواصل اليهم خمسين الف دينار لازاقهم وطعم جوارحهم والفهود وجراية
الكلاب السلوقية واليوازج هذا سوى الدواب التي تشتري لهم في كل سنة . ومؤلف
كتابنا هذا كان بيزار العزيز بالله الفاطمي ولم نعرف اسمه بل كتب فقط في آخر
كتابه هذا مانصه . « وقد كان مؤلف هذا الكتاب في جملة البيازرة منقداً عليهم
لا في جملة واحد منهم لا يحسن شيئاً من البيزرة ثم افرده امير المؤمنين صلى الله عليه
عنهم وله من العمر احدى عشرة سنة وعلمه وهو لا يملك عشرة دراهم وعليه ثوب يرد
وخرج في صناعته الى ما قد شاهده الناس وعرفوه ورقى امير المؤمنين صلى الله عليه
منزله الى ان صار اقطاعه عشرين الف دينار وبلغ المنزلة التي لو رآها في النوم لما
صدق فلا يخفى عن الناس ما كان فيه وما صار اليه » ومما قال هو في أثناء كلامه على

(١) مقالان للأستاذ رضا الشيبلي في البيزرة (المقتبس) ٩٢ ج ١ و ج ٢ م ٩

(٢) ارشاد القاصد ص ٩١

بعض الطرائد : ولو ذهبنا الى ذكر ما يبذله (اي الخليفة) من الصلوات وبتفضل به من الأرزاق والمبات لم يُحط به وصفنا ولا بلغه كتبها .

عرفنا ببذرة العبارة المهم من ترجمة المؤلف ورأيناه (ص ٢٥) يروي ويقول :

ومن فضل العلم بالصيد والعادة له ما حكاه لي ابي عن اسحق بن ابراهيم بن السندي عن عبد الملك بن صالح الهاشمي عن خالد بن برمك . . . فاذا كانت هذه الرواية رواها حقيقة عن اسحق بن ابراهيم بن السندي فتكون له قدم صدق في النبيل والوجاهة .

وقال انه اخبره مخبر عن ابي العباس بن الداية عن المعتصم . ونقل عن شهرام وكان خصيصاً بالمكتفي لمعرفته وحسن ادبه واخبره ابو بكر محمد بن لحمه الصولي (?) وعرفنا من سياق تأليفه انه عني به العناية كلها . وانه لا يكاد يثبت في كتابه الا ما صح له من طب الجوارح وحياتها مما جربه بنفسه او نقله عن اعنقد صدقهم ومعرفتهم ومما قال في صيد الباشق « ولم نصف الا ما صدنا به على أيدينا مراراً كثيرة وكان لمولانا صلى الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وابنائهم الاكرميين ولقد رأيت له وانا معه صلى الله عليه في الموكب في سنة ثمان وسبعين وثلثائة ثلاثة عشر باشقاً تصيد كلها الغربان السود الخ »

وقال مرة : وما بقي شيئاً مما جربناه الا ونذكره ولسنا ممن يحشو كتابه ما ليس بصحيح ولا يحتاج اليه ولا يزيد الكثرة » وقال في الكلام عن البزاة : « وهذا حسن ان كان صحيحاً لأنني لم اراه بل حدثت به بمحضر من جماعة فاستخفته واثبتته في كتابي هذا . ومن اسند فقد بري من عهدة الحكاية » وقال : « وقد رأينا من غذي بازيه واستعمل في علاجه ما وجدته في الكتب الموضوعة التي اكثر ما ضمنته على غير أصل وبغير تجربة » وقال : « وما بنا حاجة الى ان نذكر ما لا فائدة فيه بل نذكر ما عالجناه وجربناه وأخذناه من الثقات وما سوى ذلك فقد حكيناه عن قائله وتبرأنا من الكذب فيه واعتمدنا الحق فيما تقوله ونحكيه وهذا سبيل من وضع كتاباً الا يكذب فيه وان يتعمد الحق فيما يحكيه فانه متى اختبر من كتابه شيء ولم يصح كذب في الباقي اجمع وما بانسان حاجة الى ان يهجن بنفسه . وكفى بالكذب خزيًا واسقاطاً وضعة واحباطاً »

وقال مرة : « وما اقرب هذا من الكذب ولكني حكيت كما وجدته وعهدة الصدق

والكذب علي قائله دون حاكبه» وقال : « ولا بد لمن صنف كتاباً ان يذكّر فيه ما يصدّقه ويصح في العقل وما لا يصح في العقل ولا يقبله ليتصفح الناظر في كتابه عقول من يقبل الكذب ويصدّقه وعقول من نفاه واسنّجه » وقال : « وقد حدثنا ان الاخشيد كان له بازي يصيد به في القعر ولم نر ذلك ولا علمنا ان احداً سبقنا اليه وربما زاد الناس في الكلام ونقصوا » وقال : ان اكثر ما ضمنته الكتب الموضوعه على غير اصل وبغير تجربة» بهذا عرفنا تحري المؤلف الصدق في كتابه وكرهه التزيد والقاء الكلام على عواهنه ، فكتاباه حقيقة تحفة في باب جمع فأوعى يبدو في صفحاته جمال التأليف وبعد الغور في التحقيق ، وعبارته منسجمة نقيه وأدبه غض طريف وهو شاعر على ما يظهر وله ذوق عال في اختيار أطيب الشعر الداخل في موضوعه

ولاعجب فقد قال عن نفسه . ولم ار في المدة التي لزمته فيها الصيد ومبلغها عشرون سنة الى ان صنفت كتابي هذا في علم البيزرة مثل هذا البازي على كثرة ما رأيت منها ولقد وصل الينا في ليلة واحدة مئة باز من الشرق والغرب وكم تراه ان يصل في كل سنة منها ومن غيرها محمولاً الى مولانا امير المؤمنين صلوات الله عليه مما لم يجعل الى ملك قبله كثرة وجودة وكل ذلك أتولى تدبيره وامارس تضربته والاصطياد به .

بدأ كتابه بعد البسلة ب الحمد لله الذي له في كل لطيف من قدرته معجز يتفكر فيه وخفي من صنعه يتنبه عليه ونعم نقضي مواصلة حمده وهن تحت على متابعة شكره والذي ميز كل نوع من حيوان خلقه على حدته وابانه بشكله وصورته وجعل له من الآلة ما يلائم طبعه ومركبه ويسره للامر الذي خلق له ويؤديه الى مصلحته وقوام جسمه . وجعلنا من اشرف ذلك كله نوعاً واتمه معرفة وجمع فينا بالقوة ما فرقه في تلك الاصناف بالآلة . فليس منها شيء مخصوص كان له فيها مصلحة الا ونحن قادرون على مثلها كذوات الاوبار التي جعلت لها وقاءً وكسوة تلزمها ولا نعدمها فاننا بفضل جبلة العقل نستعمل مثل ذلك اذا احتجنا اليه ونفارقه اذا استغنيينا عنه وكذوات الحد والشوكة من صدف ومخلب فان لنا مكان ذلك ما نستعمله من السيوف والرماح وسائر الاسلحة وكذوات الحافر والخف والظلف فان لنا امثال ذلك

مما نتعلمه وننقى اذى الارض به . وجعل لنا خدماً واعواناً وزينةً وجمالاً وأكلًا واقواتاً .
 فبعض نمتطيه وبعض نقتنيه وبعض نغذبه . واحل لنا صيد البر والبحر والهواء نقنص
 الوحوش من كناسها ونحطها من معاقلها ونسنزل الطير من الهواء . ونستخرج الحوت
 من الماء . ولم يكننا في ذلك الى مبلغ حيلتنا حتى عضدنا عليه وسهل السبيل اليه
 بان خلق لنا من تلك الانواع اشخاصاً اغراها بغيرها من سائر اجناسها ووصلها
 من آلة الخلقه وسلاح البنية وقبول التأديب والتضربة والانطباع على الأكف
 والاستجابة فدلنا على موضع الصنع فيها وموقع الانفعا بها كالفهد والكلب وسائر
 الضواري والبازي والشاهين والصقر وسائر الجوارح كل ما يحويه من ذلك لنا كاسب
 وعلينا كادح وبصلحتنا عائد . نستوزعه جل جلاله الشكر على ما منحنا من هذه
 الموهبة وفضلنا به من هذه التكرمة الى ما تقصر عن تعداده ونعجز عن الاحاطة به
 من عوائد كرمه وفوائده قسمه ونزغب اليه جل جلاله في العون على طاعته ومقابلة
 احسانه باستحقاقه وصلى الله على محمد نبيه الصادق الامين البشير النذير وعلى آله الطيبين
 الاخيار وسلم تسليماً وعلى الأئمة من ولد الحسين بن علي بن ابي طالب حتى تنهي الى
 العزيز بالله امير المؤمنين فتشمله ونسله الى يوم الدين اه

هذه المقدمة نموذج من انشاء المؤلف ، وتصنيفه البالغ ثلاثمائة صفحة منصفة
 القطع جميلة الشكل والخط ، كله من هذا الطراز في البيان ولا يبالي فرصة من
 الصلاة على العزيز بالله صاحب نعمته ودولته . فكان يصفه تارة بقوله « مولانا
 صلى الله عليه صاحب العصر والزمان » وقال مرة « ورجعت لأعرف مولانا صلى الله
 عليه فلقيني عمي رضي الله عنه فقال يا مولاي وجدت الطير قلت نعم قال قد شغلت
 مولانا صلى الله عليه وجئنا جميعاً الى مولانا صلى الله عليه فقبلنا الأرض » وكان الناس
 يقبلون الأرض بين يدي العظيم من الفاطميين عادة سرت لهم من الفرس لا يقرها
 الا سلام ولم تكن عند اهل الصدر الأول ولو كانت معروفة لكانت الصحابة
 أولى الناس بتقبيل الارض بين يدي رسول الله ﷺ والسجود ما كان يجوز لغير
 الله عند اهل السابقة الاولين

قلنا ان للمؤلف ذوقاً عالياً في الشعر . سندلين على ذلك بما اورده من شعر العرب القدماء والمحدثين الى عصره . ومما قال : وما أشبه ما وقع له من ذلك الا بقول القائل
ياحبذا السفح سفح المرج والوادي وحبذا أهله من رايح غادي
ترمي فراثيره والعيس واقفة والضب والنون والملاح والحادي
قال : ولي في نحو هذا المعنى وكذا نخرج للصيد بمصر في موضع يعرف بدير
القصير منيف على ذروة جبل المقطم مطل على النيل فهو سهلي جبلي بحري .
وذكر بعض الاماكن في مصر التي كان يختلف اليها الخليفة الفاطمي للصيد
ومما قال وذلك انا ركبنا الى الجزيرة فانتهينا الى موضع يعرف بكوم الدب وفيه
بركة كبيرة وفيها غنّ كثير . وقال كنت أتف على كوم عين شمس (هكذا
شكل كوم) وصادوا مرة بشبرنمت

وروى في صفة الفهود الطريدة قصيدة « بذلك أبغي الصيد طوراً وتارة » الخ
فقال انها تشتمل على معان كثيرة وقد سرقها عبد الصمد بن المعذل فقال يصف
الفهد الخ وروى قول بعض المحدثين (ص ٢٣)

لولا طراد الصيد لم يك لذة فتطارد لي بالوصال قليلا (?)
هذا الشراب اخو الحياة وماله من لذة حتى يصيب غليلا
وأخذ هذا محمد بن الوزير الحافظ الغساني فكساه لفظاً حسناً في كلمة له
يعتذر فيها من تأخير هدية

يفدبك خل اذا هتفت به حرّت مجاري لسانه يده
آخر ما عنده لتطلبه ولدة الصيد حين تطرده

محمد كرد علي